ونلحظ فى الأداء القرآنى فى هذه الآيات الدقة فى استخدام لام التوكيد فى ﴿ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا .. (٦٥) ﴾ [الواقعة] فى الحديث عن الزرع ؛ لأن للإنسان دوراً فيه ، حيث يحرث ويغرس ويسقى ، وربما ظَنَّ لنفسه قدرة عليه .

لكن لما تحدَّث عن الماء ذكر فى نقضه ﴿ لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا .. (٧٠) ﴾ [الواقعة] بدون توكيد ، لماذا ؟ لأن الماء لا دخلَ لأحد فيه ، ولا يدعيه أحد ، فلا أنت بخرتَ الماء ، ولا أنت أنزلتَ المطر ، لذلك قال ﴿ جَعَلْنَاهُ .. (٧٠) ﴾ [الواقعة] بدون توكيد .

أما عند ذكْر النار كنعمة من نعَم الله لم يذكر ما ينقضها ، فقال : ﴿ أَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنشِئُونَ (٧٢) ﴾ [الواقعة] ولم يقُلْ مثلاً : لو نشاء لأطفأناها ، تُرى لماذا ؟ قالوا : لتظل النارُ ماثلة أمامنا على حال اشتعالها لا تخمد أبداً ، وكأن الحق - سبحانه وتعالى - يُلوِّح بها لكل عَاصٍ علَّه يعود إلى الجادَّة .

ثم يقول سبحانه : ﴿ وَكَذَلِكَ تُخْرَجُونَ (١٩) ﴾ [الروم] كذلك : إشارة إلي ما سبق ذكْره من إحياء الأرض بعد موتها ، كمثْل ذلك تُخرجون وتُبعثون ، فمَنْ أنكر البعث فلينظر عملية إحياء الأرض الجامدة بالنبات بعد نزول المطر عليها .

﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ (٢٠) ﴾

الكلام هنا عن بَدْء الخلق ، قال تعالى ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُم .. (٢٠) ﴾ [الروم] بصيغة الجمع ، والمراد آدم ثم حواء ، ثم بثَّ الله منهما

رجالاً كثيراً ونساء ، فالعالم اليوم الذي يُعَدُّ بالمليارات حين تعود به إلى الماضي لا بُدَّ أنْ تعود إلى اثنين هما آدم وحواء ، فلما التقيا نشأ منهما النسل ، لكن هل نشأ النسل من أبعاض ميتة خرجتْ من آدم ، أم من أبعاض حيّة هي الحيوانات المنوية ؟

لو أن الحيوان المنويّ كان ميتاً لما حدث الإنجاب . إذن : جاء أولاد آدم من ميكروب أبيهم آدم ، وانتشروا في الأرض وأنجبوا ، وكل منهم يحمل ذرة من أبيه الأول آدم عليه السلام . وبالتالي فكُلٌّ منّا فيه ذرة حية من عهد آدم ، وحتى الآن لم يطرأ عليها فناء أبداً ، وهذا هو عَالَم الذَّرِّ الذي شهد خَلْق الله لآدم ، إنها أبعاضنا التي شهدتْ هذا العهد الأول بين الخَلْق والخالق سبحانه :

﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَافِلِينَ (١٧٢) ﴾
[الأعراف]

إذن : في كل منّا الآن وحتى قيام الساعة ذرةٌ حيّة من أبيه آدم ، هذه الذرة الحية هي التي شهدتْ هذا العهد ، وهي التي تمثل الفطرة الإيمانية في كل نفس بشرية ، لكن هذه الفطرة قد تُطمس أو تُغلَّف بالغفلة والمعاصي .. الخ .

والحق - سبحانه وتعالى - أخبرنا أنه يخلق الأشياء ويُوجدها بكُنْ ﴿ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ (٨٢) ﴾ [يس] إلا الإنسان ، فقد بلغ من تكريمه أنْ سوّاه ربه بيده ، وجعله خليفة له في الأرض ، وتجلّى عليه بصفات من صفاته ، فأعطاه من قدرته قدرةً ، ومن علْمه علْماً ، ومن حكمته حكمة ، ومن غناه غنيّ .

وربنا سبحانه حينما يخلقنا هذا الخَلْق يريد منَّا أنْ نستعمل هذه الصفات التى وهبها لنا ، كما يستعملها هو سبحانه ، فالله تعالى بقدرته خلق لنا ما ينفعنا ، فعليك أنت بما وهبك الله من القدرة أنْ تعمل ما ينفع ، والله بحكمته رتَّبَ الأشياء ، فعليك بما لديْك من حكمة أنْ تُرتِّب الأشياء .. وهكذا .

ونشير إلى أن القدرة تختلف ، فقدرة تفعل لك ، وقدرة عُلْيا تجعلك تفعل بنفسك ، هَبْ أنك قابلتَ رجلاً ضعيفاً لا يَقْوَى على حَمْل متاعه مثلاً ، فتحمله أنت له ، فأنت إذن عدَّيْتَ إليه أثرَ قوتك ، إنما ظلَّ هو ضعيفاً :

أما الحق - تبارك وتعالى - فلا يُعدِّى أثر قوته إلى عبده فحسب ، إنما يُعدِّى له القدرة ذاتها ، فيُقوِّى الضعيف ؛ فيحمل متاعه بنفسه .

إذن : أعظم تكريم للإنسان أنْ يقول الخالق سبحانه : إننى خلقتُه بيدى فى قوله سبحانه لإبليس :

﴿ قَالَ يَـٰإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ .. (٧٥) ﴾ [ص]

ثم لك أيها الإنسان بعد هذا التكريم أنْ تكون كريماً على نفسك كما كرَّمك الله ، ولك أنْ تنزل بها إلى الحضيض ، فنفسك حيث تجعلها أنت .

يقول تعالى : ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ (٤) ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ (٥) إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ .. (٦) ﴾ [التين] فانظر لنفسك منزلة من المنزلتين .

وكلمة ﴿ مِّن تُرَابٍ .. (٢٠) ﴾ [الروم] أى : الأصل الذى خُلق منه آدم ، والتراب مع الماء يصير طيناً ، فإنْ تعطَّن وتغيَّرتْ رائحته فهو حمأ

مسنون ، فإنْ جَفَّ فهو صلصال كالفخار ، إذن : هذه هي العناصر التي وردت ومراحل خَلْق الإنسان ، وكلها مُسمَّيات للتراب ، وحالات طرأتْ عليه .

فإنْ جاء مَنْ يقول في مسألة الخَلْق بغير هذا فلا نُصدِّقه ؛ لأن الذي خلق الإنسان أخبرنا كيف خلقه ، أما هؤلاء فلم يشهدوا من خَلْق الإنسان شيئاً ، وهم في نظر الدين مُضللون ، يجب الحذر من أفكارهم ؛ لأن الله تعالى يقول في شأنهم :

﴿ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا (٥١) ﴾ [الكهف]

وبالله لو لم يَخُضْ العلماء في مسألة الخلق خلق الإنسان وخلق الشمس والقمر والأرض ... الخ . لو لم نسمع بنظرية داروين أكانت تصدُق هذه الآية ؟ وإلا لقالوا : أين المضللون الذين تكلَّم القرآن عنهم ؟ فهم إذن قالوا وطلعوا علينا بنظرياتهم ، يريدون أنْ يُكذِّبوا دين الله ، وأنْ يُشكِّكوا فيه ، وإذا بهم يقومون جميعاً دليلاً على صدْقه من حيث لا يشعرون .

وعلى شاكلة هؤلاء الذين نسمعهم الآن ينكرون أحاديث النبي ﷺ ويُشككون في صحتها ، هذه في الحقيقة ظاهرة طبيعية جاءت لتثبت صدق رسول الله ؛ لأنه ﷺ لم يغفل هذه المسألة ، إنما أخبر عنها ونبهنا إليها ، وأعطانا المناعة اللازمة - الثلاثي الذي نسمع عنه من رجال الصحة .

يقول ﷺ : « يوشك رجل من أمتي يتكىء على أريكته يُحدِّث بالحديث عني فيقول : بيننا وبينكم كتاب الله ، فما وجدنا فيه من حلال حللناه ، وما وجدنا فيه من حرام حرمناه ، ألاَ وإنَّ ما حرم رسول الله مثل ما حرم الله »[1] .

(١) أخرجه أحمد في مسنده (١٣٢/٤) والترمذي في سننه (٢٦٦٤) وابن ماجة في سننه (١٢) والدارقطني في سننه (٢٨٦/٤) من حديث المقدام بن معديكرب رضي الله عنه .

لماذا ؟ لأن الله تعالى أعطاه تفويضاً فى أنْ يُشرِّع لأمته ، فقال تعالى : ﴿ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا .. ⑦ ﴾ [الحشر] فللرسول إيتاء ، وللرسول أمر ونهى يجب أنْ يُطاع بطاعتنا لله .

وتعالَ لمن ينكر السنة ويقول : علينا بالقرآن - عندما يصلى المغرب مثلاً واسأله : كم ركعة صليتَ المغرب ؟ سيقول : ثلاث ركعات ، فمن أين علم أن المغرب ثلاث ركعات ؟ أمن القرآن الذى يتعصَّب له ، أم من السنة التى يُنكرها . إذن : كيف يتعبد على قول رسول الله ثم ينكره ؟!

إذن : فالحق - سبحانه وتعالى - بيَّن مراحل خَلْق الإنسان من تراب ، صار طيناً ، ثم صار حمأ مسنوناً ، ثم صلصالاً كالفخار ، ثم نفخ فيه الله من روحه ، ونحن لم نشاهد هذه المسألة ، إنما أخبرنا بها ، ومن رحمته تعالى بخَلْقه ، ولكى لا تحار عقولهم حينما تبحث هذه العملية يعطينا فى الكون المشاَهد لنا شواهد تُوضِّح لنا الغيب الذى لم نشاهده .

ففى أعرافنا أن هَدْم الشىء أو نَقْض البناء يأتى على عكس البناء ، فما بُنى أولاً يُهْدَم آخراً ، وما بُنى آخراً يُهدَم أولاً ، وأنت لم تشاهد عملية الخَلْق ، لكن شاهدتَ عملية الموت ، والموت نَقْض للحياة .

ولك أنْ تتأملَ الإنسان حينما يموت ، فأول نَقْض لبنيته أنْ تخرج منه الروح ، وكانت آخر شىء فى بنائه ، ثم يتصلَّب الجسد ويتجمد ، كما كان فى مرحلة الصلصالية ، ثم يتعفَّن وتتغير رائحته ، كما كان فى مرحلة الحمأ المسنون ، ثم تمتص الأرض ما فيه من مائية ليصير إلى التراب كما بدأه خالقه من تراب ، إذن : صدق الله تعالى فى المشهد حين بيَّن لنا الموت ، فصدَّقنا ما قاله فى الحياة .

وكما أن التراب والطين هما أصل الإنسان فهما أيضاً مصدر

الخصْب والنماء ، ومخازن للقوت وهما مُقوِّم من مُقوِّمات حياتنا ؛ لذلك لما تكلم القرآن عن التراب قال سبحانه : ﴿ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ (٩) وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا .. (١٠) ﴾ [فصلت] يعنى : فى الجبال لأنها أقرب مذكور أو فى الأرض عموماً ؛ لأن الرواسى فى الأرض ﴿ وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا .. (١٠) ﴾ [فصلت]

فالقوت يأتينا من طينة الأرض ، ومن التراب الذى يتفتت من الجبال مُكوِّناً الطمى أو الغِرْيَن الذى يحمله إلينا ماء المطر ، فالأرض هى أمنا الحقيقية ، منها خُلِقْنا ، ومنها مُقوِّمات حياتنا .

وعجيب أن نرى من العلماء غير المؤمنين مَنْ يثبت صدْق القرآن فى مسألة خَلْق الإنسان من طين حين حلَّلوا عناصر الأرض فوجدوها ستة عشر عنصراً هى نفسها التى وجدوها فى جسم الإنسان ، وكأن الحق سبحانه يُجنِّد مَنْ يثبت صدْق آياته ولو من الكفار .

وصدق الله العظيم حين قال : ﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ .. (٥٣) ﴾ [فصلت] . وفى القرآن آيات تدلّ على معادلات لو بحثها (الكمبيوتر) الآن لا بُدَّ أنْ نؤمن بأن هذا الكلام من عند الله وأنه صدق .

تأمل ظاهرة اللغة ، وكيف نتكلم ونتفاهم ، فأنت إذا لم تتعلم الإنجليزية مثلاً لا تفهمها ؛ وكذلك هو لا يفهم العربية . لماذا ؟ لأن اللغة وليدة المحاكاة ، فما تسمعه الأذن يحكيه اللسان ، وهى ظاهرة اجتماعية ، فلو عاش الإنسان وحده لما احتاج للغة ؛ لأنه سيفعل ما يطرأ على باله وفقط .

أمّا حين يعيش فى جماعة فلا بُدَّ له أن يتفاهم معهم ، يأخذ

منهم ويأخذون منه ، يسمع منهم ويسمعون منه ، حتى الأخرس لا بُدَّ له من لغة يتفاهم بها مع مَنْ حوله ، ويستخدم فعلاً لغة الإشارة ، وقد أقدره الله على فهمها .

والله سبحانه يُبقي للإنسان المتكلم دلالات الإشارة في النفس الناطقة ، فمثلاً لو اضطررت للكلام وفي فمك طعام ، فإنك تشير لولدك أو لخادمك مثلاً ويفهم عنك ويفعل ما تريد .

إذن : فينا نحن الأسوياء بقايا خَرس نستعمله ، حينما لا يسعفنا النطق إذن : التفاهم أمر ضروري ، واللغة وليدة المحاكاة ؛ لذلك نقول للولد الصغير : لا تخرج إلى الشارع ، لماذا ؟ حتى لا تسمع أذنه كلاماً قبيحاً فيحكيه هو .

إذن : كيف تعلمتُ اللغة ؟ تعلمتها من أبي ومن المحيط بي ، وتعلمها أبي من أبيه ، ومن المحيطين به ، وهكذا . ولك أن تسلسل هذه المسألة كما سلسلنا التكاثر في الإنسان ، وسوف نعود بالتالي إلى أبينا آدم عليه السلام ، وعندها نقول : ومَنْ علَّم آدم اللغة ؟ يرد علينا القرآن : ﴿ وعَلَّم آدم الأَسْمَاء كُلَّهَا .. (٣١) ﴾ [البقرة] هذا كلام منطقي استقرائي يدلُّ دلالة قاطعة على صدْق آيات القرآن .

وقوله سبحانه : ﴿ ثُمَّ إِذَا أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ (٢٠) ﴾ [الروم] ثم : أي بعد أنْ خلقنا الله من تراب تكاثر الخَلْق وتزايدوا بسرعة ! لأن السياق استعمل هنا (إذا) الفجائية الدالة على الفجاءة ، والتي يُمثِّلون لها بقولهم : خرجتُ فإذا أسدٌ بالباب ، يعني : فاجأني ، فالمعنى أنكم تتزايدون وتنتشرون في الأرض بسرعة ، ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓاْ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (٢١) ﴾

قلنا : إن الآية هى الشىء العجيب الذى يقف عنده العقل مندهشاً دهشةً تُورث إعجاباً ، وإعجاباً يُورث يقيناً بحكمة الخالق . من هذه الآيات العَجيبة الباهرة ﴿ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا .. (٢١) ﴾ [الروم] يعنى : من جنسكم ونوعكم .

فلم يشأ سبحانه أنْ يحدث التكاثر مثلاً بين إنسان وبقرة ، لا إنما إنسان مع إنسان ، يختلف معه فقط فى النوع ، هذا ذكر وهذه أنثى ، والاختلاف فى النوع اختلاف تكامل ، لا اختلاف تعاند وتصادم ، فالمرأة للرقّة والليونة والحنان ، والرجل للقوة والخشونة ، فهى تفرح بقوته ورجولته ، وهو يفرح بنعومتها وأنوثتها ، فيحدث التكامل الذى أراده الله وقصده للتكاثر فى بنى الإنسان .

وعجيب أنْ يرى البعض أن الذكورة نقيض الأنوثة ، ويثيرون بينهما الخلاف المفتعل الذى لا معنى له ، فالذكورة والأنوثة ضرورتان متكاملتان كتكامل الليل والنهار ، وهما آيتان يستقبلهما الناس جميعاً ، هل نُجرى مقارنة بين الليل والنهار .. أيهما أفضل ؟ لذلك تأمل دقة الأداء القرآنى حينما جمع بين الليل والنهار ، وبين الذكر والأنثى ، وتدبّر هذا المعنى الدقيق :

﴿ وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ (١) وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ (٢) وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ (٣) إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ (٤) ﴾ [الليل] أى : مختلف ، فلكلٍّ منكما مهمته ، كما أن الليل للراحة ، والسكون والنهار للسعى والعمل ، وبتكامل سَعْيكما ينشأ التكامل الأعلى .

فلا داعى إذن لأنْ أطلب المساواة بالمرأة ، ولا أنْ تطلب المرأة المساواة بالرجل ، لقد صُدعت رءوسنا من هؤلاء المنادين بهذه المساواة المزعومة ، والتى لا معنى لها بعد قوله تعالى ﴿ إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ (٤) ﴾ [الليل]

وعجيب أن نسمع من يقول - من الرجال - ينبغى للمرأة أن تحتل مكان الرجل ، وأنْ تؤدى ما يؤديه . ونقول : لا تستطيع أن تُحمِّل المرأة مهمة الرجل إلا إذا حمَّلْتَ الرجل مهمة المرأة ، فيحمل كما تحمل ، ويلد كما تلد ، ويُرضِع كما تُرضِع ، فدعونا من شعارات (البلطجية) الذين يهرفون بما لا يعرفون .

ومثل هذا قوله تعالى : ﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ .. (١٢٨) ﴾ [التوبة] أى : من جنسكم وبشريتكم ، فهو نفس لها كل طاقات البشر ، ليكون لكم أسوة ، ولو جاء الرسول ملَكاً لما تحققتْ فيه الأسوة ، ولَقُلْتم هذا ملَك ، ونحن لا نقدر على ما يقدر هو عليه . أو ﴿ مِّنْ أَنفُسِكُمْ .. (١٢٨) ﴾ [التوبة] يعنى : من العرب ومن قريش .

والبعض[1] يرى أن ﴿ مِّنْ أَنفُسِكُمْ .. (١٢٨) ﴾ [التوبة] يعنى : خَلْق حواء من ضلع آدم ، فهى من أنفسنا يعنى : قطعة منا ، لكن الكلام هنا ﴿ مِّنْ أَنفُسِكُمْ .. (١٢٨) ﴾ [التوبة] مخاطب به الذكر والأنثى معاً ، كما أن الأزواج تُطلق عليهما أيضاً ، على الرجل وعلى المرأة ، والبعض يفهم أن الزوج يعنى اثنين ، لكن الزوج مفرد معه مثله ؛ لذلك يقول تعالى : ﴿ وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ .. (٣) ﴾ [الرعد]

وفى الماضى كنا نعتقد أن نوع الجنين إنما يتحدد من ماء الرجل وماء المرأة ، لكن القرآن يقول غير ذلك : ﴿ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ (٣٧) ﴾ [القيامة] فماء المرأة لا دخلَ له فى نوع الجنين ، ذكراً كان أم أنثى ، الذكورة والأنوثة يحددها ماء الرجل .

---

(١) قاله قتادة . المراد حواء خلقها الله من ضلع من أضلاع آدم . ذكره القرطبى فى تفسيره (٥٢٧٢/٧) . وعزاه السيوطى فى الدر المنثور (٤٩٠/٦) لعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن قتادة . وأخذ به ابن كثير فى تفسيره (٤٢٩/٣) .

وهذا ما أثبته العلم الحديث ، وعلى هذا نقول ﴿ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا .. (٢١) ﴾ [الروم] يعنى : من ذكورة الأزواج[1] ، خلق منك ميكروباً هو (الإكس أو الإكس واى) كما اصطلح عليه العلم الحديث ، وهو يعنى الذكورة والأنوثة .

وسبق أنْ ذكرنا فى هذه المسألة قصة أبى حمزة الرجل العربى الذى تزوج على امرأته ؛ لأنها لا تنجب البنين ، وهجرها لهذا السبب فقالت بما لديها من سليقة عربية ، وقولُها دليل على علم العرب قديماً بهذه الحقيقة التى أثبتها العلم مؤخراً ، قالت :

مَا لأبى حَمْزَةَ لاَ يأتينَا   غضْبَانَ ألاَّ نَلدَ البَنينَا
تَاللَّه مَا ذَلكَ فى أيْدينَا   ونحْنُ كَالأرْض لزَارعينَا
نُعطى لَهُمْ مثْلَ الذى أعْطينَا

والحق سبحانه بهذا يريد أن يقول : إننى أريد خليفة متكاثراً ليعمر هذه الأرض الواسعة ، فإذا رأيتَ مكاناً قد ضاق بأهله فاعلم أن هناك مكاناً آخر خالياً ، فالمسألة سوء توزيع لخلْق الله على أرض الله .

لذلك يقولون : إن سبب الأزمات أن يوجد رجال بلا أرض ، وأرض بلا رجال ، وضربنا مثلاً لذلك بأرض السودان الخصبة التى لا تجد مَنْ يزرعها ؛ ولو زُرِعَتْ لكفَت العالم العربى كله ، فى حين نعيش نحن فى الوادى والدلتا حتى ضاقتْ بنا ، فإنْ فكرتَ فى الهجرة إلى هذه الأماكن الخالية واجهتْك مشاكل الحدود التى قيدوا الناس بها ، وما أنزل الله بها من سلطان .

---

(١) أخذ بهذا الرأى القرطبى فى تفسيره (٥٤٧٤/٧) ، فقال : « ﴿ مِّنْ أَنفُسِكُمْ .. (٢١) ﴾ [الروم] . أى : من نطف الرجال ومن جنسكم » وذكر قول قتادة بصيغة التمريض (بالميم) « قيل » . قال الشيخ أحمد شاكر فى كتابه « الباعث الحثيث شرح اختصار علوم الحديث » لابن كثير - ص ٣٤ - مطبعة صبيح : « صيغة الجزم : قال ، وروى ، وجاء ، وعن ، وصيغة التمريض (بالميم) نحو : « قيل ، ورُوى عن ، ويُروى ، ويُذكر » ونحوها .

لذلك لما أُتيح لنا الحديث فى الأمم المتحدة قلت لهم : آية واحدة فى كتاب الله لو عملتم بها لَحلَّتْ لكم المشاكل الاقتصادية فى العالم كله ، يقول تعالى : ﴿ وَالأَرْضَ وَضَعَهَا لِلأَنَامِ ۝١٠ ﴾ [الرحمن] فالأرض كل الأرض للأنام ، كل الأنام على الإطلاق .

واقرأ قوله تعالى فى هذه المسألة : ﴿ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا .. ۝٩٧ ﴾ [النساء] إذن : لا تعارض منهج الله وقدره فى أحكامه ، ثم تشكو الفساد والضيق والأزمات ، إنك لو استقرأتَ ظواهر الكون لما وجدتَ فساداً أبداً إلا فيما تتناوله يد الإنسان على غير القانون والمنهج الذى وضعه خالق هذا الكون سبحانه ، أما ما لا تتناوله يد الإنسان فتراه منضبطاً لا يختل ولا يتخلف .

إذن : المشاكل والأزمات إنما تنشأ حينما نسير فى كون الله على غير هدى الله وبغير منهجه ؛ لذلك تسمع مَنْ يقول : العيشة ضَنْك ، فلا يقفز إلى ذهنك عند سماع هذه الكلمة إلا مشكلة الفقر ، لكن الضنك أوسع من ذلك بكثير ، فقد يوجد الغِنَى والترف ورَغَد العيش ، وترى الناس مع ذلك فى ضنك شديد .

فانظر مثلاً إلى السويد ، وهى من أغنى دول العالم ، ومع ذلك يكثر بها الجنون والشذوذ والعقد النفسية ، ويكثر بها الانتحار نتيجة الضيق الذى يعانونه ، مع أنهم أغنى وأعلى فى مستوى دخل الفرد .

فالمسألة - إذن - ليست حالة اقتصادية ، إنما مسألة منهج الله تعالى غير مُطبَّق وغير معمول به ، وصدق الله : ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ ۝١٢٤ ﴾ [طه]

لذلك لو عشْنا بمنهج الله لوجدنا لذة العيش ولو مع الفقر .

وقوله تعالى : ﴿لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا.. (٢١)﴾ [الروم] هذه هى العلة الأصيلة فى الزواج ، أى : يسكن الزوجان أحدهما للآخر ، والسكن لا يكون إلا عن حركة ، كذلك فالرجل طوال يومه فى حركة العمل والسعى على المعاش يكدح ويتعب ، فيريد آخر النهار أن يسكن إلى مَنْ يريحه ويواسيه ، فلا يجد غير زوجته عندها السَّكَن والحنان والعطف والرقة ، وفى هذا السكَن يرتاح ويستعيد نشاطه للعمل فى غد .

لكن تصور إنْ عاد الرجل مُتْعباً فلم يجد هذا السكن ، بل وجد زوجته ومحلّ سكنه وراحته تزيده تعباً ، وتكدَّر عليه صَفْوه . إذن : ينبغى للمرأة أنْ تعلم معنى السَّكَن هنا ، وأن تؤدى مهمتها لتستقيم أمور الحياة .

ثم إن الأمر لا يقتصر على السَّكَن إنما ﴿وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً.. (٢١)﴾ [الروم] المودة هى الحب المتبادل فى (مشوار) الحياة وشراكتها ، فهو يكدح ويُوفر لوازم العيش ، وهى تكدح لتدبر أمور البيت وتربية الأولاد ؛ لأن الله يقول ﴿إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ (٤)﴾ [الليل] هذا فى إطار من الحب والحنان المتبادل .

أما الرحمة فتأتى فى مؤخرة هذه الصفات : سكن ومودة ورحمة ، ذلك لأن البشر عامة أبناء أغيار ، وكثيراً ما تتغير أحوالهم ، فالقوى قد يصير إلى الضعف ، والغنى قد يصير إلى فقر ، والمرأة الجميلة تُغيِّرها الأيام أو يهدّها المرض ... الخ .

لذلك يلفت القرآن أنظارنا إلى أن هذه المرحلة التى ربما فقدتم فيها السكن ، وفقدتُم المودة ، فإن الرحمة تسعكما ، فليرحم الزوج زوجته إنْ قَصُرت إمكاناتها للقيام بواجبها ، ولترحم الزوجة زوجها إنْ أقعده المرض أو أصابه الفقر .. الخ .

وكثيـر من كبار السن من الذين يتقون الله ويراعـون هذه التعاليم يعيشـون حياتهم الزوجية على هذا المـبدأ مبدأ الرحمـة ، لذلك حينما يُلمِّحون للمرأة التى أقعد المرض زوجها تقول : (أنا آكله لحم وأرميه عظم ؟) .

هذه هى المرأة ذات الدين الـتى تعيدنا إلى حـديث رسول الله فى اختيار الزوجة : « تُنكح المرأة لأربع : لمالها ، ولحسبها ، ولجمالها ـ وهذه كلها أغيار ـ ولدينها ، فاظفر بذات الدين تربت يداك »[1] . فأنت وهى أبناء أغيار ، لا يـثبت أحد منكما على حالـه ، فيجب أنْ تردا إلى شىء ثابت ومنهج مـحايد لا هوى له ، يمـيل به إلى أحدكمـا ، منهج أنتما فيه سواء ، ولن تجدوا ذلك إلا فى دين الله .

لذلك يحـذرنا النبى ﷺ : « إذا جـاءكم مَنْ ترضـون دينه وخُلقـه فزوِّجوه ، إلا تفعلوا تكُنْ فتنة فى الأرض وفساد كبير »[2] .

وإياك حين تكبر زوجتك أن تقول إنها لم تعد تملأ نظرى ، أو كذا وكـذا ، لأن الزوجة مـا جـعلها الله إلا سكنـاً لك وأنثى ووعاءً ، فـإذا هاجتْ غرائزك بطبيعتها تجـد مصرفاً ، كما قال النبى ﷺ : « إذا رأى أحدكم امرأة فأعجبته ـ أى : تعـجبه وتحرّك فى نفسه نوازع ـ فليأتِ أهله ، فإنْ البُضْع واحد »[3] .

---

(١) أخرجه أحمد فى مسنده (٢/٤٢٨) ، وأبو داود فى سننه (٢٠٤٧) ، وابن ماجة فى سننه (١٨٥٨) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه .

(٢) أخرجه الترمذى فى سننه (١٠٨٤) ، وابن ماجة فى سننه (١٩٦٧) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه . قال البوصيرى فى الزوائد : « الحديث قد أخرجه الترمذى ورجح إرساله . ثم أخرجه من حديث أبى حاتم المزنىّ ، وقال فيه : إنه حسن » .

(٣) أخرجه الإمام أحمد فى مسنده (٣/٣٣٠ ، ٣٤١ ، ٣٤٨ ، ٣٩٥) ، وكـذا مسلم فى صحيحه (١٤٠٣) من حديـث جابر رضى الله عنه أن رسـول الله ﷺ رأى امرأة فأتى امـرأته زينب ، فقضى حاجته ، ثم خرج إلى أصحـابه فقال : « إن المرأة تقبل فى صورة شيطان ، وتدبر فى صورة شيطان ، فإذا أبصر أحدكم امرأة فليأت أهله ، فإن ذلك يرد ما فى نفسه » .

وكلما طبَّق الزوجـان المقاييس الدينية ، وتحلَّيـا بآداب الدين وجد كل منهما فى الآخر ما يعجـبه ، فإنْ ذهب الجمال الظاهرى مع الزمن فـسيـبقى جـمال الروح ووقـارها ، سيـبقى فى المـرأة جمـال الطبع والسلوك ، وكلما تذكرتَ إخـلاصها لك وتفانيها فى خدمـتك وحرْصها على معـاشك ورعايتهـا لحرمة بيتك كلَّمـا تمسكْت بها ، وازددتَ حـبا لها .

وكذلك الحال بـالنسبة للزوجة ، فلكل مـرحلة من العمر جاذبيـتها وجمالها الذى يُعوِّضنا ما فات .

ولما كان من طبـيعة المرأة أنْ يظهـر عليها علامات الكبَـر أكثر من الرجل ؛ لذلك كان على الرجل أنْ يراعى هذه المسألة ، فلما سأل أحدهم الحسن : لقـد تقدم رجل يخـطب ابنتى وصفَـتـه كـيت وكيت ، قـال : لا تنكحها إلا رجلاً مؤمناً ، إنْ أحبها أكرمها ، وإنْ كرهها لم يظلمها .

ثم يقول سبحانه : ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (٢١) ﴾ [الروم] يتـفكرون فى هذه المسـائل وفـى هذه المـراحل التى تمـرُّ بالحـيـاة الزوجيـة ، وكيف أن الله تعالى جعل لنا الأزواج من أنفـسنا ، وليستْ من جنس آخر ، وكيف بنى هذه العلاقة على السَّكَن والحب والمودة ، ثم فى مرحلة الكبَـر على الرحمـة التى يجب أنْ يتعايش بهـا الزوجان طيلة حياتهما معاً .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْعَٰلِمِينَ (٢٢) ﴾

في خَلْق السموات والأرض آيات أظهرها لنا كما قال في موضع آخر إنها تقوم على غير عمد : ﴿خَلَقَ السَّمَـٰوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا .. ⦗١٠⦘﴾ [لقمان]

فالسماء التي ترونْها على امتداد الأفق تقوم بغير أعمدة[1] ، ولكم أنْ تسيروا في الأرض ، وأنْ تبحثوا عن هذه العُمد فلن تروْا شيئاً . أو ﴿بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا.. ⦗١٠⦘﴾ [لقمان] يعني : هي موجودة لكن لا ترونها[2] .

والمنطق يقتضي أن الشيء العالي لا بُدَّ له إما من عُمُد تحمله من أسفل ، أو قوة تُمسكه من أعلى ؛ لذلك ينبغي أنْ نجمع بين الآيات لتكتمل لدينا هذه الصورة ، فالحق سبحانه يقول في موضع آخر : ﴿إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضَ أَن تَزُولا .. ⦗٤١⦘﴾ [فاطر]

إذن : ليست للسماء أعمدة ، إنما يمسكها خالقها - عز وجل - من أعلى ، فلا تقع على الأرض إلا بإذنه ، ولا تتعجب من هذه المسألة ، فقد أعطانا الله تعالى مثالاً مُشاهداً في قوله سبحانه : ﴿أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوِّ السَّمَاءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلاَّ اللَّهُ .. ⦗٧٩⦘﴾ [النحل]

فإنْ قُلْت : يمسكها في جو السماء حركة الجناحين ورفرفتها التي تحدث مقاومة للهواء ، فترتفع به ، وتمسك نفسها في الجو ، نقول :

---

(١) قال الحسن وقتادة : ليس لها عمد مرئية ولا غير مرئية . [تفسير ابن كثير ٤٤٢/٣] وقال (٤٩٩/٢) : « قال إياس بن معاوية : السماء على الأرض مثل القبة يعني : بلا عمد . وكذا روى عن قتادة ، وهذا هو اللائق بالسياق والظاهر من قوله تعالى : ﴿وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَن تَقَعَ عَلَى الأَرْضِ إِلاَّ بِإِذْنِهِ .. ⦗٦٥⦘﴾ [الحج] » .

(٢) قاله ابن عباس وعكرمة ومجاهد : لها عمد لا ترونها . (نقله ابن كثير في تفسيره ٤٤٢/٣) وقال (٤٩٩/٢) : « روى عن ابن عباس ومجاهد والحسن وقتادة وغير واحد أنهم قالوا : لها عمد ولكن لا تُرى » .

وتُمسك أيضاً فى جو السماء بدون حركة الجناحين ، واقرأ إنْ شئتَ قوله تعالى : ﴿أَوَ لَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ وَيَقْبِضْنَ .. (١٩)﴾ [الملك]

فترى الطير فى السماء ماداً جناحيه ثابتاً بدون حركة ، ومع ذلك لا يقع على الأرض ولا يُمسكه فى جَوِّ السماء إذن إلا قدرة الله .

إذن : خُذْ مما تشاهد دليلاً على صدْق ما لا تشاهد ؛ لذلك يقول سبحانه : ﴿لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ .. (٥٧)﴾ [غافر] مع أنها خُلقت لخدمة الإنسان .

فمع أنك أيها الإنسان مظهر من مظاهر قدرة الله ، وفيك انطوى العالم الأكبر ، إلا أن عمرك محدود لا يُعَدُّ شيئاً إذا قيسَ بعمر الأرض والسماء والشمس والقمر .. الخ .

ثم يعود السياق هنا إلى آية من آيات الله فى الإنسان : ﴿وَاخْتِلافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ .. (٢٢)﴾ [الروم] اللسان يُطلَق على اللغة كما قال تعالى ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ (١٩٥)﴾ [الشعراء] وقال : ﴿لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَـٰذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ (١٠٣)﴾ [النحل]

ويُطلَق أيضاً على هذه الجارحة المعروفة ، وإنما أُطلق اللسان على اللغة ؛ لأن أغلبها يعتمد على اللسان وعلى النطق ، مع أن اللسان يُمثِّل جزءاً بسيطاً فى عملية النطق ، حيث يشترك معه فى النطق الفم والأسنان والشفتان والأحبال الصوتية .. الخ ، لكن اللسان هو العمدة فى هذه العملية . إذن : فاختلاف الألسنة يعنى اختلاف اللغات .

وسبق أنْ قُلْنا : إن اللغة ظاهرة اجتماعية يكتسبها الإنسان من البيئة المحيطة به ، وحين نسلسلها لا بُدَّ أنْ نصلَ بها إلى أبينا آدم عليه السلام ، وقلنا : إن الله تعالى هو الذى علَّمه اللغة حين علَّمه

الأسماء كلها ، ثم يتخذ آدم وذريته من بعده هذه الأسماء ليتفاهموا بها ، وليضيفوا إليها أسماء جديدة .

لذلك نرى أولادنا مثلاً حينما نريد أنْ نُعلِّمهم ونُرقِّيهم نُعلِّمهم أولاً أسماء الأشياء قبل أنْ يتعلموا الأفعال ؛ لأن الاسم أظهر ، ألاَ ترى أن الفعْل والحدث يدل عليه باسم ، فكلمة (فِعْل) هى ذاتها اسم .

لكن ، كيف ينشأ اختلاف اللغات ؟ لو تأملنا مثلاً اللغة العربية نجدها لغة واحدةً ، لكن بيئاتها متعددة : هذا مصرى ، وهذا سودانى ، وهذا سورى ، مغربى ، عراقى ... الخ نشترك جميعاً فى لغة واحدة ، لكن لكل بيئة لهجة خاصة قد لا تُفهَم فى البيئة الأخرى ، أما إذا تحدَّثنا جميعاً باللغة العربية لغة القرآن تفاهم الجميع بها .

أما اختلاف اللغات فينشأ عن انعزال البيئات بعضها عن بعض ، هذا الانعزال يؤدى إلى وجود لغة جديدة ، فمثلاً الإنجليزية والفرنسية والألمانية و ... الخ ترجع جميعها إلى أصل واحد هو اللغة اللاتينية ، فلما انعزلتْ البيئات أرادتْ كل منها أن يكون لها استقلالية ذاتية بلغة خاصة بها مستقلة بألفاظها وقواعدها .

أو ﴿ وَاخْتِلافُ أَلْسِنَتِكُمْ.. (٢٢) ﴾ [الروم] يعنى : اختلاف ما ينشأ عن اللسان وغيره من آلات الكلام من أصوات مختلفة ، كما نرى الآن فى آخر صيحات علم الأصوات أنْ يجدوا للصوت بصمة تختلف من شخص لآخر كبصمة الأصابع ، بل بصمة الصوت أوضح دلالة من بصمة اليد .

ورأينا لذلك خزائن تُضْبط على بصمة صوت صاحبها ، فساعة يُصدر لها صوتاً تفتح له .

ومن العجيب والمدهش فى مجال الصوت أن المصوِّتات كثيرة

منها : الجماد كحفيف الشجر وخرير الماء ، ومنها : الحيوان ، نقول : نقيق الضفادع وصهيل الخيل ، ونهيق الحمار ، وثُغاء الشاة ، ورُغاء الإبل .. الخ لكن بالله أسألك : لو سمعتَ صوت حمار ينهق ، أتستطيع أن تقول هذا حمار فلان ؟ لا ، لأن كل الأصوات من كُلِّ الأجناس خلا الإنسان صوتها واحد لا يميزه شيء .

أما فى الإنسان ، فلكُلٍّ منّا صوته المميز فى نبرته وحدّته واستعلائه أو استفاله ، أو فى رقته أو فى تضخيمه .. الخ . فلَماذا إذن تميَّز صوت الإنسان بهذه الميزة عن باقى الأصوات ؟

قالوا : لأن الجماد والحيوان ليس لهما مسئوليات ينبغى أنْ تُضبط وأنْ تُحدَّد كما للإنسان ، وإلا كيف نُميز المجرم حين يرتكب جريمته ونحن لا نعرف اسمه ، ولا نعرف شيئاً من أوصافه ؟ وحتى لو عرفنا أوصافه فإنها لا تدلُّنا عليه دلالة قاطعة تُحدِّد المسئولية ويترتب عليها الجزاء .

وقال سبحانه بعدها ﴿ وَأَلْوَانِكُمْ .. ﴿٢٢﴾ ﴾ [الروم] فاختلاف الألسنة والألوان ليحدث هذا التميُّز بين الناس ، ولأن الإنسان هو المسئول خلق اللهُ فيه اختلافَ الألسنة والألوان ؛ لنستدل عليه بشكله : بطوله أو قِصَره أو ملابسه ... الخ .

وفى ذلك ما يضبط سلوك الإنسان ويُقوِّمه حين يعلم أنه لن يفلت بفعْلته ، ولا بُدَّ أنْ يدل عليه شيء من هذه المميزات .

لذلك نرى رجال البحث الجنائى ينظمون خطة للبحث عن المجرم قد تطول ، لماذا ؟ لأنهم يريدون أنْ يُضيِّقوا دائرة البحث فيُخرجون منها مَنْ لا تنطبق عليه مواصفاتهم ، وما يزالون يُضيِّقون الدائرة حتى يصلوا للجانى .

والحق - تبارك وتعالى - يقول : ﴿ يَـٰأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن

ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا .. ﴿١٣﴾ [الحجرات]

فالتميُّز والتعارف أمر ضرورى لاستقامة حركة الحياة ، ألاَ ترى الرجل يضع لكل ولد من أولاده اسماً يُميِّزه ، فإن عشق اسم محمد مثلاً ، وأحب أن يسمى كل أولاده محمداً لا بد أن يميزه ، فهذا محمد الكبير ، وهذا محمد الصغير ، وهذا الأوسط .. الخ .

إذن : لا بُدَّ أن يتميز الخَلْق لنستطيع تحديد المسئوليات .

ثم يقول سبحانه : ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ .. ﴿٢٢﴾﴾ [الروم] أى : فى الخَلْق على هذه الهيئة الحكيمة المحكمة ﴿لَآيَاتٍ .. ﴿٢٢﴾﴾ [الروم] لنعتبر بها ، فالخالق سبحانه إنْ وحَّد الصفات فدليل على الحكمة ، وإن اختلفت فدليل على طلاقة القدرة . وانظر مثلاً إلى الصانع الذى يصنع أكواب الزجاج ، تراه يأخذ عجينة الزجاج ويصبُّها فى قالب فتخرج جميعها على شكل واحد ، أما الخباز مثلاً فيأخذ العجينة ويجعلها رغيفاً فلا ترى رغيفاً مثل الآخر .

أمَّا الخالق - عز وجل - فيخلق بحكمة وبطلاقة قدرة ، ويخلق سبحانه ما يشاء ، غير محكوم بقالب معين .

وقوله ﴿لِّلْعَالِمِينَ .. ﴿٢٢﴾﴾ [الروم] أى : الذين يبحثون فى الأشياء ، ولا يقفون عند ظواهرها ، إنما يتغلغلون فى بطونها ، ويَسْبرون أغوارها للوصول إلى حقيقتها .

لذلك يلوم علينا ربنا عز وجل : ﴿وَكَأَيِّن مِّنْ آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴿١٠٥﴾﴾ [يوسف] فلا يليق بأصحاب العقول أن يغفلوا عن هذه الآيات ، إنما يتأملونها ليستنبطوا منها ما ينفعهم فى مستقبل حياتهم ، كما نرى فى المخترعات والاكتشافات الحديثة التى خدمتْ البشرية ، كالذى اخترع عصر

البخار ، والذى اخترع العجلة ، والذى اكتشف الكهرباء والجاذبية والبنسلين .. الخ . إذن : نمر على آيات الله فى الكون بيقظة ، وكل العلوم التجريبية نتيجة لهذه اليقظة .

والعَالمون : جمع عالم ، وكانت تطلق فى الماضى على مَنْ يعرف الحلال والحرام ، لكن هى أوسع من ذلك ، فالعالم : كل مَنْ يعلم قضية كونية أو شرعية ، ويُسمَّى هذا « عالم بالكونيات » وهذا عالم بالشرع ، وإنْ شئتَ فاقرأ :

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ (٢٧) وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَٰلِكَ .. (٢٨) ﴾ [فاطر]

فذكر سبحانه النبات ، ثم الجماد ، ثم الناس ، ثم الحيوان .

ثم يقول سبحانه : ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ .. (٢٨) ﴾ [فاطر] على إطلاقها فلم يُحدِّد أى علماء : علماء النبات ، أو الحيوان ، أو الجمادات ، أو علماء الشرع ، إذن : العَالم كل مَنْ يعلم حقيقة فى الكون وجودية أو شرعية من عند الله .

لكن ، لماذا أطلقوا العالم على العالم بالشرع خاصة ؟ قالوا : لأنه أول العلوم المفيدة التى عرفوها ؛ لذلك رأينا من آداب العلم فى الإسلام ألاَّ يُدخل علماء الشرع أنفسهم فى الكونيات ، وألاَّ يُدخل علماء الكونيات أنفسهم فى علوم الشرع .

والذى أحدث الاضطراب بين هذه التخصصات أن يقول مثلاً علماء الكونيات بأن الأرض تدور حول الشمس ، فيقوم من علماء الدين مَنْ يقول : هذا مخالف للدين ـ هكذا عن غير دراسة ، سبحان الله ، لماذا تُقحم نفسك فيما لا تعلم ؟ وماذا يضيرك كعالم بالشرع أن تكون

الأرض كـرة تدور أو لا تدور ؟ مـا الحـرام الذى زاد بدوران الأرض وما الحلال الذى انتقص ؟ كذلك الحال لما صعد الإنسان إلى القمر ، اعترض على ذلك بعض رجال الدين .

كذلك نسمع مَنْ لا علْم له بالشرع يعـترض على بعض مسائل الشرع يقول : هذه لا يقـبلها العقل . إذن : آفـة العلم أن يقحم العالم نـفسه فيـما لا يعلم ، ولو التزم كلٌّ بما يعلم لارتاح الجميع ، وتركت كل ساحة لأهلها .

وعجيب أن يسـتشهد رجال الدين على عـدم كروية الأرض بقوله تعـالى : ﴿ **وَالأَرْضَ مَـدَدْنَاهَا** .. (١٩) ﴾ [الحـجـر] ولو تأملوا مـعنى ﴿ **مددْناها** .. (١٩) ﴾ [الحجر] لما اعترضـوا ؛ لأن معنى مددناها يعنى : كلما سرْتُ فى الأرض وجدتها ممـتدة لا تنتهى حتى تعود إلى النقطة التى بدأت منهـا ، وهذا يـعنى أنهـا كـرة لا نـهـاية لهـا ، ولو كـانت مُسطحة أو مُثلثة مثلاً لكان لها نهاية .

إذن : نقول لـلعلماء عمـوماً : لا تُدخلوا أنوفـكم فيمـا لا علْم لكم به ، ودَعُوا المجال لأصحـابه ، عملاً بقوله تعالى : ﴿ **قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ** .. (٦٠) ﴾ [البقرة]

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱبْتِغَآؤُكُم مِّن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ (٢٣) ﴾

كذلك من الآيات العجيـبة الدالة على قدرة الله ﴿ **مَنَامُكُم** .. (٢٣) ﴾ [الروم] فحتى الآن لم يكشف علماء وظائف الأعضاء والتشريح عن سرِّ